فضائل أفعاله .

و أما الوجه الرابع في فضائل أفعاله فمختبر بثماني خصال : .

إحدهن حسن سيرته و صحة سياسته في دين ابتكر شرعه حتى استقر و تدبير أحسن وضعه حتى استمر نقل به الأمة عن مألوف و صرفهم به عن معروف فاذعنت به النفوس طوعا و انقادت خوفا و طمعا و شديد عادة منترعة إلا لمن كان مع التأييد الإلهي معانا بحزم صائب و عزم ثاقب و لئن كان مأمور بما شرع فهي الحجة القاهرة ولئن كان مجتهدا فيها فهي الآية الباهرة و حسبك يما استقرت قواعده على الأبد حتى انتقل عن سلف إلى خلف يزاد فيهم حلاوته و يشتد فيهم جدته ويرونه نظاما لأعصار تنقلب صروفها و يختلف مألوفها أن يكون لمن قام به برهانا و لمن ارتاب به بيانا .

و الخصلة الثانية أن جمع بين رغبة من استمال و رهبة من استطاع حتى اجتمع الفريقان على نصرته و قاموا بحقوق دعوته رغبا في عاجل و آجل و رهبا من زائل و نازل لاختلاف الشيم و الطباع في الانقياد الذي لا ينتظم بأحدهما و يستديم إلا بهما فلذلك صار الدين بهما مستقرا و الصلاح بهما مستمرا .

الخصلة الثالثة انه عدل فيما شرعه من الدين عن غلو النصارى في التشديد و عن تقدير اليهود في التقصير إلى التوسط بينهما [وخير الأمور أوساطها] لأنه العدل بين طرفي سرف و تقصير فليس لما جاوز العدل حظ من رشد و لانصيب من سداد و قد قال صلى ا تعالى عليه و سلم [إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق فشر السير الحقحقة و إن المنبت لا أرضا قطع و لاظهرا أبقى] .

و الخصلة الرابعة أنه لم يمل بأصحابه إلى الدنيا كما رغبت اليهود و لا في رفضها كما ترهبت النصارى و أمرهم فيها بالاعتدال أن يطلبوا منها قدر الكفاية و يعدلوا عن احتجان و استزادة و قال لأصحابه [خيركم من لم يترك دنياه لآخرته و لا آخرته لدنياه و لكن خيركم من أخذ من هذه و هذه] و هذا صحيح لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال و الجمع بينهما اعتدال و قال صلى ا تعالى عليه و سلم : [نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة] و إنما كان كذلك لأن منها يتزود لآخرته و يستكثر فيها من طاعته و لأنه لا يخلو تاركها من أن يكون محروما مضاعفا أو مرحوما مراعى و هو في الأول كل و في الثاني مستذل .

[أثني على رجل بخير عند رسول ا صلى ا تعالى عليه و سلم و قالوا : يا رسول ا كنا إذا ركبنا لا يزال يذكر ا تعالى حتى ننزل و إذا نزلنا لا يزال يصلي حتى نرفع فقال فمن

كان يكفيه علف بعيره و إصلاح طعامه قالوا : كلنا قال : فكلكم خير منه] .

و الخصلة الخامسة تصديه لمعالم الدين و نوازل الأحكام حتى اوضح للأمة ما كلفوه من العبادات و بين لهم ما يحل و ما يحرم من مباحات و محظورات و فصل لهم ما يجوز و يمتنع من عقود و مناكح و معاملات حتى احتاج اليهود في كثير من معاملاتهم و مواريثهم لشرعه و لم يحتج شرعه إلى شرع غيره ثم مهد لشرعه أصولا تدل على الحوادث المغفلة و يستنبط لها الأحكام المعللة فأغنى عن نص بعد ارتفاعه و عن التباس بعد إغفاله ثم أمر الشاهد أن يبلغ الغائب ليعلم بإنذاره و يحتج بإظهاره فقال صلى ا تعالى عليه و سلم [بلغوا عني و لا تكذبوا علي فرب مبلغ أوعى من سامع و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه] فأحكم ما شرع من نص و تنبيه و عم بما أمر من حاضر و بعيد حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديا و لما تقلده من حقوق المة موفيا لئلايكون في حقوق ا زلل و لا في مصالح الأمة خلل و ذلك في برهة من زمانه لم يستوف تطاول الاستيعاب حتى أوجز و أنجز و ما ذاك إلا بديع معجزهم .

الخصلة السادسة انتصابه لجهاد الأعداء و قد أحاطوا بجهاته و أحدقوا بجنباته و هو في قطب مهجور و عدد محقور فزاد به من قل و عز به من ذل و صار بإثخانه في الأعداء محذورا و بالرعب منه منصورا فجمع بين التصدي لشرع الدين حتى ظهر و انتشر و بين الانتصاب لجهاد العدو حتى قهر قهر و انتصر و الجمع بينها معوز إلا لمن أمده ا بمعونته و أيده بلطفه و المعوز معجز .

الخصلة السابعة ماخص به من الشجاعة في حروبه و النجدة في مصابرة عدوه فإنه لم يشهد حربا في فزاع إلا صابرا حتى انجلت عن ظفر أو دفاع و هو في موقفه لم يزل عنه هربا و لاحاز فيه رغبا بل ثبت بقلب آمن و جأش ساكن قد ولى عنه أصحابه يوم حنين حتى بقي بإزاء جمع كثير و جم غفير في تسعة من أهل بيته و أصحابه على بغلة مسبوقة إن طلبت غير مستعدة لهرب و لاطلب و هو ينادي أصحابه و يظهر نفسه و يقول : [إلي عباد ا أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب] فعادوا أشذاذا و أرسالا و هوازن تراه وتحجم عنه فما هاب حرب من كاثره و لا انكفأ عن مصاولة من صابره و قد عضده ا تعالى بأنجاد و نجاد فانحازوا و صبر حتى أمده ا بنصره و ما لهذه الشجاعة من عديل .

و لقد طرق المدينة فزع فانطلق الناس نحو الصوت فوجدوا رسول ا صلى ا تعالى عليه و سلم قد سبقهم إليه فتلقوه عائدا على فرس عري لأبي طلحة الأنصاري و عليه السيف فجعل يقول : [يا أيها الناس لم تراعوا بل تراعوه] ثم قال لأبي طلحة : [إنا وجدناه بحرا] و كان الفرس يبطئ فما سبقه فرس بعد ذلك و ما ذاك إلا عن ثقة من أن ا تعالى سينصره و أن دينه سيظهره تحقيقا لقوله تعالى : { ليظهره على الدين كله } و تصديقا لقول رسوله صلى ا تعالى عليه و سلم : [زويت لي الأرض فرأيت مشارقها و مغاربها و سيبلغ ملك أمتي ما زوي

لي منها] و كفى بهذا قياما بحقه و شاهدا على صدقه .

الخصلة الثامنة ما منح من السخاء و الجود حتى جاد بكل موجود و آثر بكل مطلوب و محلول و مات و درعه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير لطعام أهله و قد ملك جزيرة العرب و كان فيها ملوك و أقبال لهم خزائن و أموال يقتنونها زخرا و يتباهون بها فخرا و يستمتعون بها أشرا أو بطرا .

و قد حاز ملك جميعهم فما اقتنى دينارا و لا درهما لا يأكل إلا الخشن و لا يلبس إلا الخشن و يعطي الجزل الخطير و يصل الجم الغفير و يتجرع مرارة الإقلال و صبر على سغب الاختلال .

و قد حاز غنائم هوازن و هي من السبي ستة آلاف رأس و من الإبل أربعة و عشرون ألف بعير و من الغنم أربعون ألف شاة و من الفضة أربعة آلاف أوقية فجاد بجميع حقه و عاد خلوا .

روى أبو وائل [عن مسروق عن عائشة رضي ا تعالى عنها قالت : ما ترك رسول ا صلى ا تعالى عليه و سلم دينارا و لا درهما و لا شاة و لا بعيرا و لا أوصى بشيء] .

و روى عمرو بن مرة [عن سويد بن الحارث عن أبي ذر قال : قال رسول ا صلى ا تعالى عليه و سلم : ما يسرني أن لي أحد ذهبا أنفقه في سبيل ا أموت يوم أموت و عندي منه دينار إلا أن أعده لغريم] .

و كان صلى ا تعالى عليه و سلم إذا سئل و هو معدم وعد و لم يرد و انتظر ما يفتح ا فروى حماد بن زيد [عن المعلى بن زياد عن الحسن أن رجلا جاء إلى النبي صلى ا تعالى عليه و سلم يسأله فقال : اجلس سيرزقك ا ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهم اجلسوا فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياها و قال : يا رسول ا هذه صدقة فدعا الأول فأعطاه أوقية ثم دعا الثاني فأعطاه أوقية ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية و بقيت معه أوقية واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد فلما كان الليل وضعها تحت رأسه و فراشه عباؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلي فقالت له عائشة : يا رسول ا حل بك شيء قال لا قالت : فجاء أمر من ا قال لا قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله فأخرجها و قال : هذه التي فعلت بي ما ترين إني خشيت أن يحدث أمر من أمر ا و لم أمضها] .

و روى الزهري [عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى ا تعالى عليه و سلم أنه قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك دينا فعلي و من ترك مالا فلورثته] فهل مثل هذا الكرم و الجود كرما و جودا ! ! أم هل لمثل هذا الإعراض و الزهادة إعراضا و زهدا ! ! هيهات هل يدرك شأو من هذه شذور من فضائله و يسير من محاسنه التي لا يحصى لها عدد و لا يدرك لها أمد لم تكمل في غيره فيساويه و لا كذب بها ضد يناويه و لقد جهد كل منافق و معاند و كل زنديق و ملحد أن يزري عليه قول أو فعل أو يظهر بهفوة في جدل أو هزل فلم يجد إليه سبيلا و قد جهد جهده و جمع كيده فأي فضل أعظم من فضل تشاهده الحسدة و الأعداء فلم

يجدوا فيه مغمزا لثالب أو قادح و لا مطعنا لجارح أو فاضح فهو كما قال الشاعر : .

(شهد الأنام بفضله حتى العدى ... و الفضل ما شهدت به الأعداء) .

و حقيق لمن بلغ في الفضائل غايتها و استكمل لغايات الأمور آلتها أن يكون لزعامة العالم مؤهلا و للقيام بمصالح الخلق موكلا و لا غاية بعد النبوة أن يعم به صلاح أو ينحسم به فساد فاقتضى أن يكون لها أهلا و للقيام بها مؤهلا و لذلك استقرت به حين بعث رسولا و نهض بحقوقها حين قام به كفيلا فناسبها و ناسبته و لم يذهل لها حين أتته و كل متناسبين متشاكلان و كل متشاكلين مؤتلفان و كل مؤتلفين متفقان و الاتفاق وفاق و هو أصل كل انتظام و قاعدة كل التئام فكان ذلك من أوضح الشواهد على صحة نبوته و أظهر الأمارات في صدق رسالته فما ينكرها بعد الوضوح إلى مفضوح و الحمد الذي وفق لطاعته و هدى إلى التصديق برسالته